بسم الله الرحمن الرحيم

ثوابت على درب الجهاد

الحلقة الثالثة :

الحمد لله الذي شرع لنا ديناً قويماً وهدانا سراطاً مستقيما ً، والصلاة والسلام على معلم الخلق خير البرية سيد ولد آدم فعليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

لقد عرضنا في الحلقتين الماضيتين ثابتين من ثوابت درب الجهاد ، و نواصل في هذه الحلقة ذكر تلك الثوابت ، وقبل أن نبدأ نمر مروراً سريعاً على ما قررناه في الحلقتين الماضيتين ، لقد أثبتنا في الحلقة الأولى بالأدلة الشرعية أن الجهاد ماض إلى يوم القيامة وذكرنا أقوال الفقهاء في تقرير ذلك ، وفي الحلقة الثانية بينا أن الجهاد ليس معلقاً بأشخاص حتى ولو كانت تلك الشخصية هو النبي صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى ، ووضحنا في تلك الحلقة المنهجين الذين ظهرا من الصحابة في معركة أحد على إثر إشاعة الشيطان لخبر مقتل النبي صلى الله عليه وسلم .

وحلقة اليوم سنبحث فيها ثابتين من ثوابت منهج الجهاد ، نؤكد فيهما أن شعيرة الجهاد نزلت لتدوم ولن تنقطع ، وستبقى ما بقي الدين الذي يحتاج إلى سيف يحميه ، وشعيرة جهاد تنشره .

وقبل أن ندخل في طرح موضوعنا ، يطيب لنا أن نعود لنؤكد أننا نهدف من وراء نشر تلك الثوابت تحرير منهج الجهاد من القيود والأغلال التي ألبست له ظلماً وزوراً ، ومنهج الجهاد اليوم يعاني من عدة تداعيات تعمل على طمسه أو تحديده وتقييده بغير دليل شرعي ، ومن تلك التداعيات ربما يكون سوء فهم مع سوء تطبيق من بعض من نادى بتلك الشعيرة ، ومن تلك المعوقات تحذلق عدد ممن ينتسبون للفقه بإصدار شروطاً للعمل بتلك الشعيرة لم يسبقهم إليها أحد من الأئمة في هذا الباب ، ومن تلك المعوقات خروج عدد من المخذلين المنتسبين للإسلام ليصدحوا في كل منتدى بأن الجهاد لا يصلح لزماننا ، ومن تلك المعوقات وأهمها الحلف الصليبي الذي يشن حربه على هذه الشعيرة لأنها تعارض مصالح المستعمر الأمريكي لبلدان العالم .

ونشر ثوابت درب الجهاد كفيل بإذن الله تعالى لتصحيح مفهوم الجهاد والعمل على كسح بقية المعوقات الظالمة الجائرة التي وقفت في طريقه ، وبعد تصحيح المفهوم يمكن أن نرتبط بهذه الشعيرة من الناحية الروحية ثم من الناحية الفكرية ثم من الناحية المنهجية وأخيراً من الناحية التطبيقية العملية ، فإحياء هذه الشعيرة يحتاج إلى مجهودات للتوضيح والبيان ، وليس التوضيح والبيان يقتصر على المعرفة الفقهية البحتة المنفصلة عن الواقع ، فهذا وإن كان مطلوباً كفقه ، إلا أنه يحتاج إلى أن يربط بمنهج يؤدي إلى تطبيق ذلك الفقه والتعبد بتلك الشعيرة على أرض الواقع كتعبد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم بها .

ونمثل لتحرير العبادة من القيود بهذا المثال ليتضح المقال : لقد شرع الله الصلاة لمن كان قبلنا ، ولكن ربط الله سبحانه وتعالى أداء تلك العبادة بأماكن مخصوصة كالبيع والصوامع وغيرها ، وعندما شرع الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم الصلاة حرر الله تلك العبادة من القيد المكاني فأعطى النبي صلى الله عليه وسلم مالم يعط أحدا من الأنبياء قبله وكان مما أعطي كما في الصحيحين حيث **قال صلى الله عليه وسلم عن جابر رضي الله عنه (وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل)** فأصبحت الأرض كلها صالحة لأداء تلك العبادة إلا سبعة مواضع استثنيت من

الأرض بنصوص أخرى في حال الاختيار لا الاضطرار أيضاً ، فتحرير هذه العبادة من هذا القيد سهل ويسر أداءها لكل عبد ، علماً أن وضع ذلك القيد ورفعه كان تشريعاً من الله سبحانه وتعالى لحكمة هو يعلمها .

ونحن اليوم في ذكرنا لثوابت شعيرة الجهاد نحاول أن نرفع القيود الظالمة الآثمة الفاجرة التي وضعها حثالة البشر وعارضوا بها نصوصاً شرعية قطعية الثبوت والدلالة ، فسمعنا ممن ينتسب للإسلام من يزعم بأن تصادم الحضارات هو دمار وخراب ، والإسلام بريء من ذلك التصادم ونحن بحاجة إلى تعايش الحضارات وبحاجة إلى السلام ونبذ العنف والنزاع المسلح (الجهاد) ، ورأينا أيضاً عددا لا حصر لهم يدخلون في المؤتمرات الرامية إلى حرب تلك الشعيرة أو إلغائها باسم التسامح أو الوسطية أو حوار الأديان ، فبعيداً عن مباركة بعض المنتسبين للإسلام لهذا التحالف الصليبي الواضح الذي يشن هجمته المسعورة على الجهاد والمجاهدين ، نجد أننا أمام عدد كبير أيضاً ممن ينتسبون للإسلام وهم يباركون المؤتمرات واللقاءات القائمة على حرب الجهاد سواءً باسم العنف أو الإرهاب .

ولمواصلة إيضاح المعالم الثابتة على درب الجهاد ، وللرد على الدعاوى المنددة بالجهاد من هنا وهناك ، نقف في هذه الحلقة مع ثابتين من تلك الثوابت يزول بفهمهما بعضاً مما ألحق بالجهاد ظلماً .

الثابت الثالث : الجهاد ليس معلقاً بأرض :

بعد أن سقنا الأدلة في الحلقتين السابقتين التي تؤكد أن شعيرة الجهاد صالحة لكل زمان وأنه لا يوجد زمن من الأزمنة منذ أن شرع الله الجهاد لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة من راية للجهاد في سبيل الله ، من المناسب أن نسوق في هذه الحلقة الأدلة التي تثبت أن الجهاد ليس معلقاً بأرض دون أخرى إذا وجدت الأسباب وانتفت الموانع .

إن من المفاهيم الخاطئة والتي تسببت بتحريف مفهوم تلك الشعيرة هو أن تعلق عبادة الجهاد بأرض بعينها ، وحينما تفقد تلك الأرض أو يحل الدمار بها فإن ذلك الفهم حتماً سيؤدي إلى إلغاء هذه العبادة أو العزوف عنها أو الزعم بأن وقتها لم يحن بعد .

ولا بد قبل الشروع في عبادة الجهاد أن نرسخ مفهوماً عظيماً لممارسة هذه الشعيرة و هو أن الجهاد عالمي لا تحجبه الحدود ولا الحواجز ، وأن المسلم بحاجة إلى هذه العبادة إذا كان مصراً على تبليغ دين الله تعالى وتعبيد الناس لربهم ، كما كان فعل الصحابة رضي الله عنهم حينما كانوا يجوبون مشارق الأرض ومغاربها برسالة عبر عنها ربعي بن عامر رضي الله عنه عندما سأله رستم ما جاء بكم فقال (الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا ، ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نفضي إلى موعود الله ، قال : وما موعود الله ؟ قال الجنة لمن مات على قتال من أبى والظفر لمن بقي) فالصحابة جاءوا بالسيف والقرآن ليفتحوا بقاع الأرض ، وبما أن المسلم لا زال يحمل الرسالة المحمدية فلا بد له أن يحمل مفهوم أن الجهاد صالح لكل زمان ولكل مكان .

وقولنا صالح لكل مكان لا يعني ذلك أن المسلم ليس له هم إلا أن يشعل الحروب في كل بقاع الأرض كلا ، ولكن الجهاد صالح لكل مكان توفرت فيه الشروط وانتفت الموانع ، ولهذه الشروط والموانع ضوابط شرعية التفصيل فيها يخرجنا عما نحن فيه ولعلنا نفرد لها حلقة للحديث عنها .

المهم من القول أن القناعة بأن الجهاد ماض إلى قيام الساعة وأنه موجود في كل

زمان – وهذا موضوع الحلقة الأولى – تجرنا هذه القناعة حتماً إلى التأكد بأن الجهاد موجود في أرض أو أكثر من بلاد العالم اليوم ، ومعنى ذلك هو أن الجهاد لا يعلق بأرض بل هو معلق بشروط سواءً كانت تلك الشروط هي أسباب تشريع أو كانت مقومات عمل ، وهو أيضاً معلق بموانع و متى تحققت تلك الشروط وانتفت الموانع فإن الجهاد سيؤدي إلى نتيجة أو أكثر من نتائج الجهاد الإيجابية ، ولا يمكن أبداً أن نعدم الأرض التي تتوفر فيها أسباب تشريع الجهاد ومقوماته .

والانطلاق من هذا المفهوم لممارسة شعيرة الجهاد يجعل العبد حراً في تطبيقه لهذه العبادة ، فهو غير محصور بأرض ، ولم يعلق الجهاد ببلد ، بل علقه بشروط وموانع ومتى توفرت الشروط وانتفت الموانع ، فالمكان مناسب لممارسة هذه الشعيرة .

و يتضح ما تقدم من مطالعة السيرة ، فالمسلمون خسروا في بداية الإسلام ديارهم وأرضهم وأموالهم ، ولكنهم لم يعتقدوا أن الإسلام لن ينتشر إلا من تلك الأرض المقدسة – مكة – بسبب ما فيها من مقومات حيث إنها كانت قبلة العرب آنذاك وهي ثقلهم وهي البلد التي يعرفونها ويعرفوا أهلها ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم بأمر من الله تعالى خرج من تلك الأرض لينشر الإسلام انطلاقاً من غيرها ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يخيل إليه بأنه مهاجر وكان يذهب ظنه إلى اليمامة أو هجر ، وعرض نفسه على أهل الطائف لينشر الدعوة من هناك ، فأوحى الله إليه أن الهجرة إلى طيبة ، فهاجر إليها وانطلق وصنع مقومات الانطلاق والجهاد والبقاء ، وبدأ يعمل لأرض مهجره وكأنها الأرض التي ولد فيها ، وانتشر الإسلام من أرض ليست هي أحب البقاع لا إلى الله ولا إلى نبيه صلى الله عليه وسلم فقد قال صلى الله عليه وسلم وهو خارج منها كمار روى القرطبي في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال (لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال اللهم أنت أحب البلاد إلى الله وأنت أحب البلاد إلي ولولا المشركون أهلك أخرجوني ذكره الثعلبي وكأين من قرية هي أشد قوة .. الآية لما خرجت منك) فنزلت الآية وهو حديث صحيح .

وروى أيضاً الترمذي والحاكم وابن حبان وغيرهم قول النبي صلى الله عليه وسلم لمكة (ما أطيبك من بلد وأحبك إلي ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك) وفي رواية (والله إني لأعلم أنك خير أرض الله وأحبها إلى الله ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت).

وهكذا لم يقيد نفسه صلى الله عليه وسلم بأرض بل قيدها بشعائر يسعى لتهيئة الأوضاع والأماكن لأدائها ، وهكذا كان دأبه صلى الله عليه وسلم لا في الدعوة ولا الجهاد ولا أي في شعيرة أخرى .

وحمل الراية من بعد النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه رضي الله عنهم ففعلوا كما فعل سيدهم صلى الله عليه وسلم فجابوا الأرض طولاً وعرضاً ، ولم يكن سبب مفارقتهم للمدينة النبوية فرارهم بدينهم كما فارقوا مكة ، بل إنهم فارقوا أقدس البقاع بعد مكة من أجل نشر الدين وإقامة شعيرة الجهاد في مشارق الأرض ومغاربها .

يوضح ذلك ما رواه الإمام مالك في موطئه فقال : أن أبا الدرداء رضي الله عنه كتب إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه أن هلم إلى الأرض المقدسة فكتب إليه سلمان إن الأرض لا تقدس أحدا وإنما يقدس الإنسان عمله .

فلم يعلقوا الجهاد بمكة أو المدينة ولم يعلقوه أيضاً ببيت المقدس ، بل إنهم جعلوا تلك الشعيرة عبادة يعبدون الله بها في كل مكان تحققت أسباب التعبد به.

ولو أن المسلمين علقوا الجهاد بالأرض لاندثرت تلك الشعيرة لأن المسلمين فقدوا السيطرة على بقاع عدة في تاريخهم القديم والمعاصر ، فتعليق مفهوم

الجهاد من أجل بيت المقدس يؤدي إلى زوال شعيرة الجهاد إذا عجز المسلمون عن تحريرها أو حرروها ، ففي كلا الأمرين زال مناط الجهاد الوحيد فزال الجهاد ، وهذا يدل دلالة واضحة على ضلال من قال إن نزاعنا مع اليهود هو نزاع من أجل الأرض ، فقد كذب ذلك القائل بل إن نزاعنا مع اليهود هو نزاع عقدي ولو أن المسلمين استنقذوا جميع بلاد المسلمين من أيديهم لكان واجباً عليهم أيضاً أن يلاحقوهم في أرضهم ويغزوهم في عقر دارهم كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده رضي الله عنهم .

ومفهوم تعليق الجهاد بأرض هو مفهوم باطل سيؤدي إلى التخلي عن تلك الشعيرة إذا فقدت تلك الأرض ، وهذا نفسه قد يؤدي إلى إلغاء شعائر أخرى إذا ما أنيطت بأسباب لم يأذن الله بها .

هذا ما ينبغي فهمه بخصوص أن راية الجهاد لا يمكن أبداً أن يخلوا زمان منها ، ومن علق الجهاد بأرض فإنه حتما سيقول لا جهاد إذا فقدت تلك الأرض .

ثالثاً : الجهاد ليس معلقاً بمعركة : -

ومن الآفات التي تنخر في عقيدة كثير من الناس تجاه الجهاد هو تعليق شعيرة الجهاد بمعركة ، فإن انتصرنا في تلك المعركة فهذا يدل على صحة ذلك المبدأ والمقدمة ، وإن هزمنا فهذا يدل على بطلان المقدمة والمبدأ ، وهذا الاعتقاد باطل شرعاً وعقلاً ، وهو ناتج عن الانهزامية ، وقلة الإيمان وعدم الصبر والمصابرة .

أما بطلانه عقلاً : فلا ترابط من الناحية المنطقية والعقلية بين المقدمة والنتيجة ، ففشل النتائج لا يدل أبداً على بطلان المقدمة أو خطأها .

أما شرعاً : فإن النبي صلى الله عليه وسلم كما جاء في الصحيحين قال (عرضت علي الأمم فجعل النبي والنبيان يمرون معهم الرهط والنبي ليس معه أحد) فالنبي الذي جاء وليس معه أحد ، جاء بغير نتيجة لدعوته ، فلا يدل عدم إسلام أحد معه على بطلان دعوته أو الخطأ – تعالى الله عن ذلك – في إرساله في الوقت والمكان المناسب ، هذا لا يعتقده إلا زنديق .

ولنا في التاريخ معارك كانت الهزيمة فيها يتصور معها المسلم أنها لن تقوم للإسلام بعدها قائمة ، ومن أشد تلك المعارك التي هزم الإسلام والمسلمون فيها معارك التتار في بداية عام 656هـ عندما اجتاحوا بلاد العراق والشام ، فقتلوا في العراق في أربعين يوماً أكثر من مليون نسمة ، أي بمعدل 25 ألف نسمة يومياً ، وزاد فسادهم واجتاحوا بلاد الإسلام وانتصروا في كل معركة خاضوها ضد المسلمين ، ولما محص الله المسلمين وتضرعوا إليه التقى التتار مع المسلمين في معركة عين جالوت وهزموا شر هزيمة ، رغم أنهم انتصروا في معارك سابقة وأصبحوا أقوى مما سبق والمسلمون أضعف بكثير مما كانوا عليه في بغداد قبل دخول التتار عليهم ، والحال نفسه عندما اجتاح القرامطة بلاد العراق والحجاز في بداية القرن الثالث الهجري ، وقبل ذلك كان الحال في أحد فإن المسلمين هزموا في أحد أمام الكفار ، ثم أصابهم البأساء والضراء وزلزلوا في معركة الأحزاب التي بعدها ، إلا أنهم انتصروا بعد حين في المعارك التي تلت الأحزاب وأعظمها فتح مكة .

فتعليق شعيرة الجهاد بمعركة هو من أكبر عوامل الهزيمة النفسية ومن أكبر عوامل ضعف المسلمين اليوم ، لأننا لا في القديم ولا في الحديث لم نقاتل عدونا بكثرة عدد ولا عدة ، ولا يمكن أبداً أن نعول في معاركنا على موازين مادية فإذا بذلنا وسعنا في الإعداد فقد برئت الذمة حتى لو حصلت الهزيمة ، وتعليق ارتفاع شأن الإسلام بمعركة بعينها أو بحرب خاصة قد يؤدي إلى الإحباط وترك الجهاد بسبب تلك الهزيمة علماً أننا لا نقاتل بعدد ولا عدة ، فقد نكون في معركة

أكثر من عدونا وأفضل مكاناً منه ، إلا أننا لم نستكمل شروط النصر الإيمانية فيمحصنا الله بالهزيمة لتصفى النفوس وتتمحص الصفوف ، وحينما نتحاكم إلى المقياس المادي في معركة ما ونعلق آمالنا بها فالهزيمة فيها ستحبط النفوس وتفت في الهمم وتعطل الجهاد ، ولكن الصحيح أن نجاهد لأن الجهاد عبادة مفروضة سواءً هزمنا أو انتصرنا .

وختام هذه الفقرة لا بد أن أشير إلى أمر مهم ، وهو أني أخشى أن يفهم من كلامي المتقدم أنني أقلل من أهمية معركة الإسلام مع الكفر العالمي في أفغانستان كلا ، فمعركة أفغانستان لها ما بعدها ، فإن انتصرنا فقد تحررت رقاب المسلمين من العبودية لأمريكا و للغرب ، وإن قدر الله الهزيمة فإن المسلم الصادق في كل مكان في العالم سوف تكون أعز أمانيه أنه مات قبل هذا وكان نسياً منسياً لما يتوقع أن يلاقيه المسلمون من طغيان أمريكي في بلاد الإسلام ، لذا فإن معركتنا مع الكفر في أفغانستان هي معركة مهمة وحاسمة ، فوجب علينا أن نضع ثقلنا فيها بكل الوسائل والإماكنيات لننتصر بإذن الله تعالى ، ولا تلازم بين هذا الكلام وبين وجوب عدم تعليق الجهاد أو النصر بمعركة لأن الهزيمة فيها لمن دخلها بهذا المفهوم ستعني له اندثار أو ضعف شعيرة الجهاد ، سواء ترجم ذلك الشعور بقوله أو بعمله أو كتمه في نفسه .

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

أخوكم / أبو مجاهد